

## ترحال في العمر الزمني والابداعي

### خاتمة بنوتة

البعيدة عن البناء الحقيقي للمعارك والشعوب، قد دفعني بعد رجة يونيو من القصة القصيرة إلى رواية «النار والاختيار» التي كانت صحيحة رهيبه ضد هذا الفتك الماحق لجسدنا العربي محيطاً وخليجاً.

لهذا كان علي أن أكون أهلاً لحمل أنة ورفض ووجع وتطلع هاته الجموع نحو البدائل التي ترهن المستقبل للتغيير الحاسم، وذلك بالتعامل الفكري والابداعي مع الأرضية الواقعية لها، واستلهاهم بنيات التغيير من عناصره المتشابكة، وذلك بالتحاور معه في حركيته الجلدية من أجل تحطيم كل الأسس المشككة له سابقاً.

أن ذلك التسجيل لتلك المرحلة، وأخذ موقف منها نظرياً وإبداعياً وعملياً، بكل الطروحات الخاصة والعامه، قد جعل مفهومي الاجتماعي والسياسي يتشكل، فقررت ليلى في رواية «النار والاختيار» ترك العمل النظري الصرف في مركز الدراسات، واختيار التدريس، لتستطيع أن تنتصر على الهزيمة فيها وفي النفوس والحضورات الشابة التي ستعامل معها لتقتلع منها كل أسباب الهزائم، فتقيم حواراً مع ما لها وما عليها، من منطلق متبصر بواقعه الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي.

ورجوعاً وراء قليلاً، فإنني ومنذ أول انتاج كنت قد حاولت عبر القصة، أن أتلمس قشرة الواقع من زاوية رؤية

ونحن الشجر نحن النخيل... علينا أن نسير أماماً أماماً حين تتنمر خيانة اللون والجلد والخطو والهوية حتى لا يجرفنا تيار الانحسار إلى القبر... وإلا فمن الحتمي أن نغرس جذور النخيل حتى الجذع ونحن نجد أنفسنا... نفس هذا الشعب العربي في عصر السمسرة والنكوص في الدرجة الأولى من الصفر لأننا بذلك الانغراس في رحم الأرض الصلد نشكل موقفاً ضد عواصف الجزر التي تأخذ الآن جميع أشكال المتاجرة والسفالة والغدر والنكوص، كل ذلك بالخصوص لمن راهن ومن الأول بأدوات تعبيره، تلك وهاته، على حاضر يمضي وآخر أحسن سيأتي.

ثم أقول، بما أن الأدب حسب بعض الآراء هو من جملة الفنون التي تدفع بمستوى الحياة والشعوب، نحو الأصح وبما أنه أيضاً تعبير أو انتاج جد ذاتي، يحمل السمات الشخصية لتلك الذوات، فقد انطلق صوتي ومن الأول عنيفاً ممزقاً لكل الستر الخارجية، معانقاً الداخل والموضوعي بحدة، راهناً نفسه للوقوف في الضفة الأخرى من كل ما لا يخدم الإنسان في طرحه للإشكالات وتجاوزها، وارهاصاته بالمخاض العام للواقع وذلك في التقاطه للحركات السفلية التي تبشر بالتغيرات المستقبلية.

كما أن انفجار الوعي على الهموم الكبيرة وعلى الدمار العام في المؤسسات الرسمية والممارسات السياسية،

خصبة، وفي شكل فني متطور، سواء من ناحية المعمار أو اللغة أو المضمون، حيث لم يتسم فيه الحدث أو الفعل بالتعقيد، وإنما أيضاً بمحاولة مزج الواقع بالفكر غالباً مع الخلفية الفلسفية في الغالب، لكن أيضاً بالانتماء للأرض ومحاولة تثبيت الأقدام، لمعايشة الواقع واستنطاق القوى المظلومة فيه، من أجل كشف زيفه وكشف مضمون ووعي مصحوبين بالتزام أيضاً.

ولهذا كان الشعور بالاعتراب، هو ملجأ ما بشكل من الأشكال حيث لا قاعدة تكون بدءاً لفعل، يستطيع أن يكون مردوده خلاصاً من الانغمار في الحزن الميتافيزيقي.

إن الغرق في العالم الداخلي يعكس أيضاً بشكل ما، فداحة هول العالم الخارجي، في بناء وعلاقاته ونمطيته ورعب الأنظمة فيه، لهذا اهتمت في مرحلة ما وفي القصة بالخصوص أيضاً، بالتيارات الداخلية، حيث يتكفئ الشعور وتقل الأحداث، دون الاهتمام أساساً بالتفاصيل المادية، لكن مع ذلك كان الالتزام الحر عندي، يقتضي صياغة الجوانب الشخصية مرتبطة بما هو موضوعي، مع التركيز على التداعي واللاشعور.

ومما ساعد على ذلك انصهار النماذج التي أطرحها في ناري الداخلية، حيث أتيناها، لتصبح كأنها قضايا ذاتية ترتبط بما هو موضوعي، ليتولد العمل الابداعي دون مسافة بيننا، مما يجعل الانفعالات والابحار داخل الأشياء والقضايا الفكرية ذات التوغل والعمق والرهافة لها تأثير حاسم في المعمار الفني.

بالإضافة إلى مسببات هذه الهيكلة فإن إيماني بأن الأدب يجب أن لا يعكس الواقع فحسب، بمجاعة بليدة، بقدر ما يوقظ فينا آخر جديداً، وذلك بإعادة خلقه من نفس المواد، لكن برؤى جديدة، وذلك ما دمنا لا نستطيع أن نتحرر من العالم، بل أن نعطيه عبرنا بحرارة وصدق، ليضمن أمن القارئ وسلامه، فيشعل في استكانته حريق التغيير، وبذلك يحقق مثل هذا العمل الابداعي ضرورته وموضوعيته.

إن الطبيعة جماد يكتسب وجوده من رؤيتنا وفعاليتنا، هاته

الرؤية التي لا يمكن أن تكون شخصية، لهذا فكل عمل إبداعي يحمل شارات مبدعة فكرياً وفنية ومواقف وبصراً وبصيرة، عبر مواقفه من كل القضايا المحلية والقومية والإنسانية، وبذلك ينعكس العالم الخارجي غالباً عندي باحثاً عن صورته الأخرى غير المشكلة في عالم الواقع، مضيفاً لجزئيات هذا الواقع وكيالاته أيضاً، الخلفية الفكرية والعمق الشعري في مثل هذا تناول، رافضاً اللبوس السردي العادي، شاحناً الكلمات بطاقة من الشحنات والتأثير، من أجل تجديد العبارات والكلمات والرؤية والدلالات، ولهذا فإنني استعمل أسلوب الجمل الشعرية القصيرة، تلك الجمل الدالة على معاني يمكن بسطها في فقرة أو أكثر، ولكنها عبارة عن طاقات مفجرة للواقع والفكر وأرضيتهما، وبذلك فكأن السائر عبر السطور، يسير فوق أرض دون أمان، وإنما فوق سلسلة من تفجرات متراسة، تقتل أمن القارئ، وتدفعه للمشاركة في عملية التهديم والالتمام حتى مرحلة بناء البديل الصحي.

وهكذا يكون عدم التركيز عندي على الوصف الخارجي يتلازم عندي مع بحث شرس في نفسية الأشخاص مع مرونة التعبير الشعري الموحى بانفعال وتوهج، إلى جانب هذا يكون التداعي والمونولوج الداخلي من العناصر الهامة التي تقيم توازناً شبه متكامل بين العالمين الخارجي والداخلي الذي لا يجعل من انتاجي انعكاساً مضبوطاً لحيوات وأشخاص محدودين، وإنما هو لقطات لنماذج بشرية تعكس لفظة تستقي طبعاً من يم الواقع المتلاطم.

وفي هذا السياق، سياق التجريب المؤسس، الباحث عن بديل لشكل الجاهز، فإنني أجهد من أجل أن أتحرر من البناء المعماري التقليدي بل وكما اجتهدت مؤخراً في رواية (الغند والغضب)، حيث جمعت روايتين في واحدة كل واحدة ذات مضمون متفرد، يلتقيان ويتعدان عبر محور متحرك سلباً وإيجاباً، تطرح إحداهما إشكالاً فكرياً فلسفياً وهو نتيجة تأثير تعميم الواقع عند مراقفة ذكية تعايش فترة ازدهار الفلسفة الوجودية، وبذلك فهي عبر كل سلسلة الأحداث التي تعيشها ولا تشدها، تبحث عن الأرضية ذات الدلالة والمعنى التي تستطيع أن تجيب على استفهامها

الضخم حول نقطة البدء: أين هي؟

بينما تنطلق الرواية الثانية بشكل ملتزم متعمق الوعي بالواقع مخطط لترجمة ذلك الوعي في ممارسة مع مجموعة من الطلبة الذين يتطور مفهومهم للواقع ولمسؤولياتهم تجاه هذا الواقع من أجل تغييره عن طريق مشاركة القاعدة في تنويرها ودفعها إلى تبني دورها التاريخي... إلى أن تلتقي الروايتان بسوت الأب نموذج الماضي غير الفاعل والتقاء كل العناصر في حركة جماعية ذات أرضية واقعية ودلالات اجتماعية.

إن تعدد الأصوات وتعدد الأرضيات، وتعدد الطروحات، وتعدد النظرات، وتعدد زوايا الرؤية والفهم والأخذ، وتعدد الأطروحات وتعدد البطل أو حذفه أو تهميشه، وتداخل الأزمنة وتعدد الأمكنة واختلاف البناء في كل رواية أو المجماميع القصصية الخمس مع اختلاف المواضيع وتكاملها، هي ما حاولت أن أغرّب به الشكلية المتداولة في البناء الروائي أو القصصي. ففي الوقت الذي حاولت فيه هذه التعددية فإنني رغبت في تجميع أكثر ما يمكن من شرائح الواقع والاستحواذ عليها وسجنها في ببحوحة الكلمات لأعطي أكبر عدد من الشرائح الاجتماعية والابداعية والفكرية التي تعكس مرحلة تاريخية معينة.

ومع ذلك فليس نجاحي أو عدمه في هذا التجاوز المعماري الفني التقليدي هو سلسلة نهائية في حلقة التجريب (التطوير). إن عملية الخلق تعني التجاوز، تجاوز ليس المحقق فحسب بل المحلول به أيضاً في سلسلة اللهات الدائب الباحث عن الآتي: بناء ومضموناً، فناً واجتماعاً، وبذلك فإن المبدع يقع أحياناً في إشكال بين أنه المبدعة وبينه كشخص اجتماعي، ثم بين ما يجب أن يعكسه كشخص تابع من الواقع أي كمنتج، وبين عطاء آخر يعكس عالماً ليس عالم الكثرة: لكنه مع ذلك مطالب بإحداث التوازن الضروري بين الواقع والتمثيل، بين الموضوع والفكر، وبين الآني واللانهائي.

إن من إشكالات المبدع أيضاً اقتناعه هو وغيره بمدى

خدمة مسيرته للتحويلات الاجتماعية، فهل من الضروري، وفق اشكالات واقعا المتعددة، الإتيان بعالم منظم يكون مطمحا لواقعا أو يجب خلخلة كل البنى والمؤسسات وتفجير كل قائم شكلاً ومحتوى من أجل نسف كل توازن مغشوش؟

إن رصد التحويلات وحمولات المستقبل وتاريخ الابداء المشرعة في وجه مجتمعاتنا يضع المبدع في الواجهة ليكسر صلابة القيود عن خطو الجموع، وبذلك فإن دوره ريادي، أي يجب ألا يتعقب مخاض الواقع وجدليته فحسب بل أن يساهم أساساً في صنعهما.

كما أن في داخل المبدع تتصارع السموات والأراضي، لتجعله يتصل وينفصل بالمجدي والعدم في آن، نتيجة اختياره الأرعن أمام جبروت الكون وأسرار الوجود اللامتناهي التي ترميه في الوحدة واليتم والسؤال الأعم، باحثاً عن الرضى واليقين...

وأخيراً يبقى استفهام: هل الكتابة في مثل واقعا العربي ترف أم ضرورة؟ إذ رغم أن علاقتي بالكتابة أساساً وبدعاً، كانت هي تبرير الوجود على الصعيد الذاتي والمشاركة في معركة التغيير على الصعيد الموضوعي، إلا أن الأمية المتسلطة على الساحة العربية من جهة، وانسحاقنا بالهزائم المتعددة أمام فلسطين الصغيرة والكبيرة (الوطن العربي كله) فلسطين الذات وفلسطين الأعماق أيضاً، بكل ما تشكله من أبطال خيانتها قومياً ودولياً، فإنني لا أقتنع بالتبرير الذي انطلقت به أولاً في أول عناق حميمي لي بالكلمة، بل في وجوب البحث عن مشروع جديد، يتعدى نطاق الفرد إلى مسؤولية الجموع، لصياغته نظرياً ولخلق أدوات التعامل معه عملياً حيث ترتبط الكلمة بالفعل ربطاً جدلياً يبشر بالآتي: فناً وعملاً(\*).

المغرب

(\*) شهادة قدمت إلى الملتقى العربي الأول للإبداع العربي في أكادير.